القديس أوغسطين وصراعه مع الدوناتيين

د. عبد الحميد عمران/ قسم التاريخ / جامعة المسيلة
amrafis@hotmail.com

الملخص:

ساهم القديس"أوغسطين" في عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجيهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين، إضافة لذلك محاولة إغراء من يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيته واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم ..

ويعترف "أوغسطين" بالعنف الممارس ضد خصومه وأنه طلب من السلطات الزمنية القضاء على البدعة الدوناتية لأن ذلك في صالح الجميع :-" قد يغيظكم أن ننزع من فيالقكم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن ذلك طبقا للقوانين فبالخطاب على الأقل." ولعل ذلك ما شجع السلطات الزمنية على إصدار تلك الترسانة من القوانين والقرارات الداعمة للطرف الكاثوليكي، خصوصا بعدما وقف الدوناتيون إلى صف أي تمرد أو ثورة أو عصيان ضد السلطة التي وجدت في الكاثوليك حليفا لها.

ولنا أن نطرح إشكالية نظرة هذه الشخصية في الصراع الذي ظهر قبل الامتداد الكاثوليكي في شمال افريقيا ما بين السلطة الزمنية والدوناتتين؟.وكيف ساهمت في هذا الصراع؟.

Summary

Saint "Augustine" contributed to hold the Catholic academies that had imposed the will and guidance, not hesitate to file complaints against Donatism paving the way for the intervention of the temporal power in disputes circle between Christians, in addition to that attempt to lure Itusm including propensity and discord of Donatism attempt to strike movement from the inside and thus fragmentation and the Catholic Church has been able to succeed in the absorption strength Donatism, and Friable them ..

Recognizes "Augustine" violence against his opponents and that he had asked the authorities time eliminating heresy Donatism because that in everyone's interest: - "may Vexes you that tend your Corps of real weapons, if not in accordance with the laws of the speech at least." Perhaps it is time encouraged the authorities on that issue arsenal of laws supporting the Catholic Party, resolutions, especially after stopping Donatism to describe any rebellion or revolution or rebellion against the authority which is found in the Catholic ally.

And for us to ask such personal look problematic in the conflict, who appeared before the Catholic sprawl in North Africa between the temporal power and Donatism? .and How Contributed to this conflict?

مقدمة

ساهم القديس"أوغسطين" في عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجيهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين، إضافة لذلك محاولة إغراء من يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيته واستطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم من خلال مجامعهم وانتخاب "ماكسيمان" أسقفا للكنيسة الدوناتية عوضا عن "بريميانوس" والذي دعا إلى عقد مجمع في "باغاي "بحضور 310 أسقفا وتم الحكم على "ماكسيمان" كمنشق ومُنِحَ مهلة ثمانية أشهر ليعود إلى الكنيسة الدوناتية، إلا أنه لم يستجب وبدأ في تنظيم كنيسته، وطلب من أتباعه ترك الأحقاد الماضية ولكن بعضهم عاد إلى الكنيسة الدوناتية رافضا طلب "ماكسيميان"

وكان هذا الانشقاق في سلسلة الخلافات الدوناتية – الدوناتية التي كانت تفتقد إلى الكفاءة القيادية في بعض مراحلها مما يؤدي إلى نزوع أطراف إلى الخروج عن الصف أو رفض القبول بسلطة تلك القيادة وقبل هذا الانشقاق كان الانشقاق الروقياتوسي بموريطانيا القيصرية والذي ظل محصورا في منطقة "كارتيناو" قبل أن ينهار أمام ضربات ثوار 372م.

ويعترف "أوغسطين" بالعنف الممارس ضد خصومه وأنه طلب من السلطات الزمنية القضاء على البدعة الدوناتية لأن ذلك في صالح الجميع :-" قد يغيظكم أن ننزع من

فيالقكم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن ذلك طبقا للقوانين فبالخطاب على الأقل." ولعل ذلك ما شجع السلطات الزمنية على إصدار تلك الترسانة من القوانين والقرارات الداعمة للطرف الكاثوليكي، خصوصا بعدما وقف الدوناتيون إلى صف أي تمرد أو ثورة أو عصيان ضد السلطة التي وجدت في الكاثوليك حليفا لها، وأصدرت قانونا لحمايتها ويظهر ذلك من أن الإمبراطور "هونيريوس" وجه قانونا إلى الحكام الأفارقة وكاهن أفريقيا "هيريوس" صادر في 395/03/23م يمنح امتيازا للكنيسة الكاثوليكية ويأمر بتوفير الحماية لها من عنف المنشقين. وهذا الانشقاق هو الذي أضعف الحركة الدوناتية بلا شك مع نهاية القرن الرابع للميلاد

1/ بداية الصراع المسيحي الروماني:

وساهمت الحماسة الدينيّة منذ عصر الشهداء الأوائل وإلى شهداء قرية" أبتينا"في إثارة الجماهير المسيحيّة ،التي أخذت تدعوا إلى القصاص من الُمرتدين والمقصرين ،و وصّفهم بالكفار[1]. وعلى ضُوء ذلك لم يكن الانشقاق من فرقة مبتدعة تستهدف جوهر العقيدة المسيحيّة ، وإنما انشقاق محليّ تركز في أفريقيا عُموما وفي نوميديا على وجه الخصوص. أساسه الاختلاف حول التنظيم الكنسي وعدم الاعتراف بشرعيّة أسقف قرطاج الجديد. وعلى العكس من ذلك فقد نشأت نِحلٌ متعددة مست بجوهر العقيدة في أجزاء مُتفرقة من الإمبراطورية.

في الوقت الذي أُتهم فيه أسقف قرطاج "منصوريوس" (Mansurius) بعدم القدرة على الصمود، وأنه قام بتسليم الأواني والكتب المقدّسة إلى السلطات لإحراقها ويعترض

القديس أوغسطين على هذا الاتهام و يحوله إلى الطرف المدعي بأن أتباعه ضربوا وحدة الكنيسة بتهور وحقد مليء بالمرارة [2]. وعلى ضوء هذا الاتهام نشأت خلافات حادّة في تفسير هذا الفعل وتبريره، إذ يرى قسم من المسيحيين أنه من الأعمال المبررة التي تستهدف حقن الدماء في حين عدّه قسم آخر بأنه من أعمال الخونة المارقين[(3)].

وبدأت الكنيسة في نوميديا تختلف مع كنيسة قرطاج التي كانت ترتبط بها، بعد اتهام "منصوريوس" بدعوّة المسيحيّين إلي الامتثال للأوامر الإمبراطورية حقنًا للدماء،[4] معلنا في نفس الوقت عن تمسكه بعقيدته قائلا:-" أنا مسيحيّ، وأسقف ولست بخائن." في الوقت الذي أعلن فيه أهل" أبيتنا "عن بيان أُعتبر بمثابة ميثاق لمسيحيّي المغرب القديم، وأهم فقرة فيه هي:-"أن كل من أتحد مع الخوّنة، لن يكون في صفّنا، أو مع مالك السماء"[(5)].

والحماسة هذه هي التي عززت روح المقاومة والتمسك بالعقيدة ، وأوضحت نصوص الدوناتيين الأولى هذا التوجه من خلال نص لمؤلف مجهول بعد أحداث "أبتينا" جاء فيه :- "إن فيالق الرب تتقدم في المعركة بكثير من الشجاعة والحزم ...وإن الأعداء ينهزمون في كل المعارك المجيدة التي يسقط فيها الشهداء ...إن الأعداء يريدون إضعاف جنود الرب ."[(6)]

ومن هذه النظرة نجد أن الانشقاق في الكنيسة الأفريقية غذّته الروح الدينيّة والتمسك بجوهر العقيدة، والخلاف قائم مع "كاسيليانوس" و"فيليكس الأبتونجي"على اتهامهما بعدم الثبات وقت الشدّة ، واتهام"كاسيليانوس"بحمل السوط ضد المتظاهرين

أمام سجن "أبتينا"، وقطع المؤونة على المسجونين. فالمنشقون راحوا يصفون أنفسهم على أنهم" أبناء القديسين الأطهار." – في إشارة إلى ضحايا الاضطهاد– والمعارضين للخونة. وكوّنوا بذلك شعبيّة كبيرة، وبخاصة في نوميديا [7] .

2/ دور القديس اوغسطين في العداء ضد الدوناتيين:

يعترف القديس "أوغسطين" بالمصاعب التي كان يلقاها والده "باتركيوس" (Patricius) الذي يمتلك أراضي في "تاغست"، من أنه كان يوفر لقمة المعيش لأسرته بصعوبة.[8]

في حين نجد موظفين كبار في الدولة وبروقناصلة وسفراء لهم ضيعات في أفريقيا، رغم أن عدد كبير منهم كان يقيم في روما ويكتفي فقط بجني الأرباح من الأراضي التي يمتلكها في أفريقيا[9].

وكان هؤلاء الملاكين الكبار يستخدمون العبيد في ضيعاتهم الأفريقية، بعدما قام "نيرون" بمصادرة أراضي شاسعة من الأهالي الذين تحولوا إلى عبيد، ولكن واعتبارا من أواخر القرن الثاني للميلاد، بدأ يختفي عبيد الفلاحة من الضياع الأفريقية[10].

ويشير "جزال" إلى أن القديسة "ميلانيا الصغرى" قد أعتقت آلاف العبيد من أراضي بأفريقيا قبل مغادرتها للمنطقة سنة 417م[11].

إن تردي الأوضاع الاقتصادية في المنطقة، أدى إلى حالة من الاحتقان الاجتماعي وعدم الرضا استغلته وبلا شك المسيحية، التي دعت إلى كسب الرزق والسعي لأجله ومحاربة الاتكال على الغير، ولم تحارب الغنى والثروة بل دعت إلى التضامن بين أتباعها، ويسدي القديس "أوغسطين" بنصيحة إلى الأغنياء بقوله:-" إنك تملك إذن الذهب وهو أمر حسن، ويمكنك أن تصبح بواسطته صالحا، أو على الأقل أن تقدم الخير، وذلك بتقديم الصدقة وإعطاء الفقراء لكي يبقى دائما"[12].

فالثروة إذن هي وسيلة عيش وتقرب إلى لله لا غير، ونلمس ذلك من خلال نص لترتليانوس:-"لا يجب على المسيحي أن يتمنى الثراء، إذا لم يكن لديه، وإن كانت لديه الثروة وفقدها، لا يجب عليه أن يحزن على ذلك، لأنها محتقرة في جوهرها، وعلى المسيحيين أن يتركوا للوثنيين الارتباط بها لأنها تشغلهم بملذات الدنيا"[13].

وهذا النص يدعو إلى القناعة فيما بين المسيحيين وحثهم على نبذ طلب الغنى إن لم يكن موجودا لأن الغنى يزيد من الطمع والجشع ويدفع على اللهو عن الدين والابتعاد عنه، إلا أنه لم يحارب الغنى إن كان موجودا

وأكدت رسائل الشماس "نينديناريوس"(*Nundinarius*) ، والذي جرده "سيلفانيوس" من رتبته الدينيّة هذه الاتهامات[14]. كما حملت رسائل أخرى موجهة إلي الإمبراطور" قسطنطين"، هذه الاتهامات ضد أسقف سيرتا "سيلفانوس"، بل واتهمته بأنه خائن ولصّ ومصلحيّ. كما أتهم بتسليم الكتب المقدسة إلى الوثنيّين. وبتلقي الأموال من "لوسيللا" ليساهم في حملة انتخاب "ماجورانوس"[15].

وبالمقابل تمت تبرئة ساحة "فيليكس الأبتونجي" من التهم التي وجهت إليه، بعد إجـراء تحقيقـات حولهـا وذلـك في 15 فيفـري 315م، بحكـم مـن البروقنصـل "إيليانوس"(*Ælianus*) بعد إجراء تحقيق قضائي[16]. إن المصالحة حسب"أوغسطين" كانت ضرورية مع المسيحيين بعد أن خرج الانقسام إلى العلن ولتكسير التقليد القائم على الحفاظ على الأسرار الدائرة ما بين المجادلين في الكنيسة[17]، وذلك لتبرير سياسة العداء والانتقاص من دور الحركة التي تحامل عليها "مونصو" أيضا بعد محاولات الصلح بقوله:-"لقد أوصى"قسطنطين" بحمل الذئاب إلي حضيرة النعاج"[18]. والذئب هم الدوناتيين والنعاج هنا هم الكاثوليك كدليل على الهدوء والسكينة والابتعاد عن الغلو والتطرف، واستفاد الدوناتيون من ذلك في النهاية بتنظيم تماسكهم

ويتهم"القديس أوغسطين" (*Saint Augustianus*)[19] مجموعة السبعين قس بقوله:"**لقد أقر المذنبون محاكمة الغائبين الأبرياء ، لأنهم يريدون تغطيّة جرائمهم بالتشهير بالغير، ونشر الإشاعات الكاذبة لتحويل الأنظار للبحث عن الحقيقة.**"[20].

رغم الشك في تنصر كافة أتباع الدوناتية إذ أن عدد الوثنيين كان كبيرا جدا في مقابل المسيحيين الذين وجدوا بالمدن الرئيسية وفي الضيعات الكبرى مع بداية القرن الرابع للميلاد.[21] ومما يعني أن أتباع الدوناتية لم يكونوا كلهم نصارى مما يبين أنها تحولت إلى حركة ذات مطالب اجتماعية بلباس ديني، ويقترب اعتراف أوغسطين من هذا الطرح لما

يبين بأن الأسقف الدوناتي في مدينه هيبون "ماكروبيوس" يستعين بمترجم إلى البونية ليتحدث إلى الدوارين وليؤنبهم على ما أحدثوا في المدينة من تخريب وعنف[22].

وبقي السكان في مختلف المناطق في بلاد المغرب القديم متمسكين بلغتهم البونية والليبية ووجدت الكثير من النقوش المكتوبة بالبونية والبونية الجديدة والتي تعود على عهد القديس "أوغسطين"[23]. مما يعني ابتعادهم عن الثقافة اللاتينية التي حملت الديانة المسيحية، ويذهب أوغسطين إلى أنة اختار أحد قساوسته الذي يتقن البونية لتعينه في إحدى القرى المجاورة لمدينة هيبون[24].

وكان لملاك الأراضي من الكاثوليك دور كبير في إرغام عمالهم على المسيحية ويتجلى ذلك من خلال مراسلات للقديس أوغسطين إلى الملاك يدعوهم فيها إلى معرفة ديانة مزارعيهم ويقر بأن أسقف "كالاما" اكترى ضيعة وقام بتعميد حوالي ثمانين مزارعا فيها[25]، ولا شك فإنه قد أدرك دور هؤلاء في تنصير عمالهم ولو كان ذلك صوريا حتى لا يستغلهم الطرف الدوناتي المنافس.

ارتبط السكان بالدوناتية باعتبارها المعبر عن مشاغلهم أمام السلطة الرومانية والمعمرين والربويين، خاصة خلال النصف الأول من القرن الرابع، مما أعطى قوّة للحركة الدوناتية التي أحدثت القطيعة نهائيا مع الكاثوليك، واستخدمت الدعاية لتزداد شعبيتها في المنطقة، لتصبح هي الأولى بل ووصلت إلى موريطانيا[26] وأصبحت هي النحلة الوحيدة السائدة، ويعترف "أوبطا الميلي" بهذا النجاح في استقطاب السكان بقوله:–"**لقد كانوا حادي البصيرة في إغرائهم**"[27].

لقد كانت اضطهادات سنة 347م رهيبة في نوميديا، وتركت آثارا عميقة في نفوس الدوناتيين، وهذا ما جعل أسقف سرتا "بتيليانوس" (Petilianus) يقول لخصومه من الكاثوليك في ذكرى تلك الحوادث:- "**إن الكتاب المقدس يقول،"لا تقتل أخاك وأنتم قتلتمونا.. ولا تأخذ متاع غيرك، وأنتم نهبتم أملاكنا واعتبرتموها ملكا لكم**"[28].

وحاول القديس "أوغسطين" أن يجد تبريرا لتلك الأعمال بقوله:-" **لماذا لا تُجبر الكنيسة أبنائها على العودة إليها مادام هؤلاء الأبناء الظالون يستعملون القوّة لمقاتلة الآخرين**"[29].

في مقابل ذلك انعقد مجمع كاثوليكي بقرطاج في 348 م برئاسة "قراتوس" (Gratus) الذي افتتحه بالشكر لله والامتنان للإمبراطور "قسطانس" الذي تدخل بواسطة مبعوثيه لتكريس الوحدة الدينية، مما يبين بأن الكاثوليك لم يخفوا ترحيبهم بتدخل السلطة إلى جانبهم[30] .وخرج المجمع بمجموعة قرارات تدين الدوناتية وتلغي وجودها ومحاكمة أساقفتها، ورفض إعادة التعميد وإعادة النظر في أمر تقديس الشهداء[31].

وتم طرد الكثير من الكاثوليك من كنائسهم وتعرضوا للأذى وعُنِفَت النساء وأُرهِب الأطفال،- بحسب الرواية الكاثوليكية- والتي تشير إلى أن الدوناتيين كانوا يستخدمون كلابا في ذلك.[32] ويذهب القديس أوغسطين إلى أن الأساقفة الدوناتيين "كانوا يحكمون بالموت جوعا على خصومهم"[33].

واستفاد الدوناتيون من الوضع الجديد بعد أن أعطى جوليانوس حرية المعتقد، وأشارت تقارير حكام المقاطعات الأفريقية إلى الاغتيالات والنهب والسلب التي قام بها الدوناتيون في عهده ومنها تقرير لحاكم موريطانيا القيصرية "اثينيوس" (Athenius) الذي أشار إلى تلك الأعمال، ولكن الإمبراطور لم يفعل شيئا ليتواصل العنف و العنف المضاد بعد موته[34].

وتم تعيين"أوغسطين" أسقفا جديدا لأسقفية "هيبو ريجيوس" (Hippo Reguis)، سنة 392م، الذي كان له دور فاعل في إحداث انشقاق داخل الحركة نفسها، باستعماله لجميع الوسائل والإمكانيات بما في ذلك الدعوة إلي استخدام القوة [35] **ذلك لأن" الكلام لا ينفع، ويجب ضربهم بالقضبان"**[36] –حسب أوغسطين- في الوقت الذي كانت الكنيسة الدوناتية تمر فيه بأخطر مراحلها بظهور أخطر انقسام فيها[37]، وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الرومانية في المنطقة تعمل على إخماد الثورات الملتهبة بقيادة "ثيودوز"[38].

3:دور القديس اوغسطين في العقوبات ضد الدوناتيين

أصدرت السلطة الرومانية الأوامر لمصادرة المنازل والضيعات التي يُشك في أنها تمثل مراكز للاجتماعات الدوناتية وأراد الإمبراطور"ثيودوز" القضاء على الحركة التي ألحقت الضرر بالاحتلال الروماني بالمغرب القديم[39]، وذهب به الأمر إلى حدِ أن اصدر قانونا في 15 جوان 392 م، ينص على فرض غرامة مالية تقدر بعشر(10) ليرات ذهبية على رجال الكنيسة الدوناتية [40] ويقول "اوغسطين" عن هذا القانون في رسالته إلى أسقف

كالاما "كريسبنوس" الدوناتي (Crispinus):-"**لقد أجبرناكم على دفع عشرة ليرات ذهبية طبقا لأوامر الإمبراطور**"[41]، مما يبيّن دور هذا الأسقف في تحريك التشريع الرادع لصالح الكاثوليك.

وشددت الإمبراطورية قبضتها على الديانات الوثنية، وقامت بهدم المعابد الوثنيّة مما خلف ضحايا في أفريقيا[42] وأشارت النقوش المكتشفة خلال نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس إلى أن المنطقة الجنوبية لنوميديا قد سجلت تلك الصراعات الدموية في الوقت الذي كانت الحكومة منتفعة في بناء الصروح والملكيات الواسعة[43].

وفي الفترة ما بين سنتي 391 و 430 م أوحت المجامع المنعقدة خلال هذه الفترة بإصدار سلسلة من القوانين القاسية المعادية للدوناتية، وتدمير دور عبادتها[44]، ومن خلال رسالة وجهها أسقف هيبون إلى الوثنيين في "مداوروش" يتبين أن الكنيسة الرسمية تساند السلطة الرومانية في هذا المسعى، إذ طلب منهم ضرورة هدم المدافن وتحويل المعابد الوثنية إلى حظائر، وأما التماثيل فيجب أن تكسر أو تحرق أو تدفن أو تباد[45] وهذا ما أدى إلى رد فعل من طرف الوثنيين على القرارات الصادرة، حيث قام الوثنيون بحرق كنيسة في "كالاما"، وقتلوا كاهنا وبحثوا عن أسقف المدينة من أجل قتله[46].

والملاحظ هنا أن الكتاب الكاثوليك كانوا يستخدمون الدعاية من أجل إظهار الطرف المعادي بمظهر العنف والدناءة وعدم القدرة على مسايرة الأحداث، خصوصا وأن المصادر التي تناولت هذا الجانب كانت كلها كاثوليكية معادية.

4: دور القديس اوغسطين في عودة قوة الطرف الكاثوليكي

في هذا الوقت الذي انتظمت فيه الكنيسة الرسمية ونالت دعم السلطة، تسارعت الأحداث مع نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس، فالاجتماعات الأسقفية توالت الواحدة تلو الأخرى، وبلغت أقصاها في الفترة ما بين 6 جانفي 392 و1- 8 جوان 411 م حيث عقد 25 مجمعا كنسيا ما بين مجمع عام ومجمع إقليمي، كاثوليكي ودوناتي في حين لم يُسجل سوى 16 مجمعا كنسيًا ما بين 5 مارس 305م، إلى غاية نهاية سنة391 م، فعلى مدار 86 سنة لم يعقد سوى 16 مجمعا[47] بمعدل مجمع واحد لكل خمس سنوات وخمسة أشهر تقريبا، وعلى مدار19 سنة عقد 24 مجمعا بمعدل مجمع لكل تسعة أشهر، ويبدوا أن تكثيف انعقاد المجامع كان لرغبة الطرفين في إيجاد اتفاق بينهما يضمن التعايش على الأقل.

ووجه القديس أوغسطين رسالة مؤرخة في سنة 392م إلى الأسقف الدوناتي المنشق "ماكسيمانس "(Maximans) يدعوه فيها ليس إلى التعايش وحسب بل إلى الوحدة مع الكاثوليك، بعد أن لامه على إعادة تعميد أحد الكهنة الكاثوليك، مخاطبا إياه:- **"إني عازم بعد أن أعطاني الرب السلطة والقوة لأن أقود هذه القضية الأخلاقية، وأن لا أترك أدنى شك في الوحدة داخل الكنيسة الكاثوليكية...لابد من ترك هذا الانشقاق"**[48].

واستخدم الكاثوليك في ذلك الدعاية وأسلوب المِنّة إن تنازلوا عن شيء لصالح الدوناتيين كما حدث مع أسقف "كالاما الدوناتي ""كريسبنوس" (Crispinus)

الذي قاد مجموعة من الدوارين وهاجم الأسقف الكاثوليكي في نفس المدينة، مما دفع بالكاثوليك إلى رفع دعوى ضده للإمبراطور والذي حكم عليه بدفع عشرة أرطال ذهبية لصالح الخزينة سنة 392 م، لكن أوغسطين تدخل لدى السلطات لتعفو عنه[49]. واستغل هذا التدخل في الدعاية ضد خصومه الذين صورهم بتهديد الكاثوليك الدائم بقوله:-".. **وبعد صدور قرار الإمبراطور فإن"كريسبنوس" لم يؤد حتى الآن الذهب إلى الخزينة العامة، ورغم القوانين الجديدة التي تهدد أساقفتكم بالنفي فإنه لازال في ملكيته يسكن في أمن وأمان**"[50].

وكان الدوناتيون يسارعون إلى ضم كنائس الكاثوليك إليهم وبالخصوص في الضيع والمناطق التي تقل فيها الحماية، ووجدت الكثير من المعابد في الشرق النوميدي وفي الأوراس وفي تلال النمامشة والجنوب الغربي من تيفست، وغيرها من المناطق التي سيطر عليها الدوناتيون، ويحصي الآب "ميناج" بأنه من مجموع 311 كنيسة ومعبد في المنطقة، نجد 219 منها دوناتية[51]. وذلك في عهد القديس أوغسطين وهذا يعني بأن الدوناتية قد تحوّلت إلى حركة محليّة مُرتبطة بسكان المغرب القديم الذين وجدوا فيها الخلاص من الأسى الذي يعانون منه.

وبعد مجمع هيبون سنة393م ثم مجمع قرطاج سنة 397م، فإن الكنيسة الأفريقية بدأت تحدد الدواء لمعالجة مشاكلها خاصة وأن الدونانيين بدأ بعضهم يتراجع عن مبادئه، بعد الانشقاق الداخلي[52] وهو عبارة عن انشقاق ما بين طائفة متساهلة مع المسيحيين الكاثوليك ومع الأغنياء، وفئة أخرى متشددة وزاهدة، تمقت الأغنياء، وتتألف بالخصوص

من العبيد والبؤساء، وحمّلت نفسها مسؤولية تحقيق المساواة بين الناس ومركزها مدينة "تيموقادي".

5: تدعيم الكاثوليك للمنشقين الدوناتيين

وجد الكاثوليك في أخبار الانشقاق الدوناتي فرصة لتمزيق الدوناتية وجلب أتباعها إلى الصف الكاثوليكي وتشجيع عقد المجامع المناوئة للكنيسة الدوناتية، وحملت الوثائق عقد مجمع مُوازٍ للدوناتيين من طرف "ماكسيمان" المنشق في سنة 393م في "قبرسوسة" بإقليم "البصاسين"، وبحضور مائة من رجال الدين ورفعوا دعوى ضد "بريمانوس" وأكدوا بالإجماع حكما سابقا في24 جوان ضد الأسقف الجديد، وشرح المحضر المناقشات التي دارت في المجمع وحمل المحضر تعدادا للأحكام الصادرة ضد "بريمانوس" ومنها ضربة لأربعة شمامسة بلا وجه حق[53].

وأعلن خلع "برميانوس" من الأسقفية وبعث المجتمعون برسائل إلى كل الكنائس الدوناتية بأفريقيا من أجل قبول هذا الحكم، وهددوا كل من يتعامل مع "بريمانوس"[54] وذلك بهدف عزل "بريمانوس" بعد اجتماع الأساقفة الذين وافقوا على الحكم على"بريمانوس" في غيابه، وأعلنوا عن تعيين "ماكسميانوس"المنشق بدلا منه[55].

وساهم القديس"أوغسطين" في عقد المجامع الكاثوليكية التي كان يفرض فيها إرادته وتوجيهاته، ولا يتوانى في تقديم الشكاوى ضد الدوناتيين ممهدا بذلك الطريق لتدخل السلطة الزمنية في الخلافات الدائرة ما بين المسيحيين[56]، إضافة لذلك محاولة إغراء من

يتوسّم فيهم النزوع والشقاق من الدوناتيين كمحاولة لضرب الحركة من الداخل وبالتالي تفتيتها، ففي رسالته إلى "ماكسيمان"الدوناتي" سنة 392م خاطبه قائلا:- "**إننا ندعوكم بالشرفاء..وإنك تعلم بأن الرب طلب منّا أن ننادي بعضنا بالأخوة ...أخي العزيز إن موت أحد إخواننا مؤلم وهذا الألم هو حمد من الرحيم وعناية من الرب، مما تحمل أفكار السلم من حلاوة تفضَّل الله بإلهامكم روح السلام أخي العزيز**"[57].

وبهذه النظرة استطاعت الكنيسة الكاثوليكية أن تنجح في امتصاص قوّة الدوناتيين، وتفتيتهم من خلال مجامعهم وانتخاب "ماكسيمان" أسقفا للكنيسة الدوناتية عوضا عن "بريميانوس" والذي دعا إلى عقد مجمع في "باغاي "بحضور 310 أسقفا وتم الحكم على "ماكسيمان" كمنشق ومُنِحَ مهلة ثمانية أشهر ليعود إلى الكنيسة الدوناتية[58]، إلا أنه لم يستجب وبدأ في تنظيم كنيسته، وطلب من أتباعه ترك الأحقاد الماضية[59]. ولكن بعضهم عاد إلى الكنيسة الدوناتية رافضا طلب "ماكسيميان" كما يعترف بذلك "أوغسطين":-"**سمعنا قبولكم برجوع "الماكسيمانيين"**[60] **إلى حظيرة الدوناتية، بعد إدانتكم لهم من قبل**"[61].

وكان هذا الانشقاق في سلسلة الخلافات الدوناتية - الدوناتية التي كانت تفتقد إلى الكفاءة القيادية في بعض مراحلها مما يؤدي إلى نزوع أطراف إلى الخروج عن الصف أو رفض القبول بسلطة تلك القيادة وقبل هذا الانشقاق كان الانشقاق الروقياتوسي بموريطانيا القيصرية والذي ظل محصورا في منطقة "كارتيناو" قبل أن ينهار أمام ضربات ثوار 372م.

ويعترف "أوغسطين" بالعنف الممارس ضد خصومه وأنه طلب من السلطات الزمنية القضاء على البدعة الدوناتية لأن ذلك في صالح الجميع :-" **قد يغيظكم أن ننزع من فيالقكم أسلحتها الحقيقية، إن لم يكن ذلك طبقا للقوانين فبالخطاب على الأقل.**"[62] ولعل ذلك ما شجع السلطات الزمنية على إصدار تلك الترسانة من القوانين والقرارات الداعمة للطرف الكاثوليكي، خصوصا بعدما وقف الدوناتيون إلى صف أي تمرد أو ثورة أو عصيان ضد السلطة التي وجدت في الكاثوليك حليفا لها، وأصدرت قانونا لحمايتها ويظهر ذلك من أن الإمبراطور "هونيريوس" وجه قانونا إلى الحكام الأفارقة وكاهن أفريقيا "هيريوس" (Hierius) صادر في 395/03/23م يمنح امتيازا للكنيسة الكاثوليكية ويأمر بتوفير الحماية لها من عنف المنشقين[63].

وكان نتيجة لضعف القيادة وسعيها من أجل الزعامة الفردية، مع الإغراءات الممارسة من طرف الكنيسة الرسمية، وهذا الذي حمل التصدع إلى الحركة الدوناتية ليصل إلى درجة عقد مجامع، ومجامع مضادة ما بين الجناح الماكسيماني والجناح البريماني.

وهذا الانشقاق هو الذي أضعف الحركة الدوناتية بلا شك مع نهاية القرن الرابع للميلاد، في الوقت الذي كان فيه الطرف الخصم يستخدم أساليب الإقناع والدعاية والخطابات، وعقد مجمع بقرطاج في 397/08/28 م لمنع إعادة التعميد والعودة بقوة إلى القواعد الأخلاقية السابقة والدفاع عن النظام ومنع قبول أساقفة أجانب[64].

ورأى "أوغسطين" في ذلك نصرا للكاثوليكية (سنة 400م)، إذ قال:-"**إن الفرع الدوناتي الذي كان مُتهمًا في كل العالم، هاهو في عجزه ينتج ثمار السلم والمحبة**"[65]، وذلك كدليل رضا وابتهاج منه لما كان يحدث داخل البيت الدوناتي.

زاد القمع بعد 12 فيفري 405 تاريخ صدور قانون"الوحدة الدينية "(unitate lex) من قبل الوصي "ستيلكون" والذي أمر ثلاثة أساقفة من أجل متابعة التنفيذ،[66] وكان يهدف إلى إخضاع المنشقين وتطبيق الأوامر بشدة لمنع إعادة التعميد، ومصادرة الأموال، ونفي الدوناتيين[67]، وهذا ما جعل الأساقفة الكاثوليك يوشون بخصومهم إلى السلطة، وانخرط الكثير من الدوناتيين في الكاثوليكية –حسب المؤرخ جوليان-، في حين أن الدوارين لم يهتموا بأوامر الأساقفة الدوناتيين، والذين تبرءوا منهم[68]، ومُنِعوا من عقد اجتماعاتهم وسُلبت منهم كنائسهم وصودرت منازلهم وممتلكاتهم وتم نفي أساقفتهم وشماسوهم نفيا دائما[69].

وبدأ عنف مضاد من قبل السلطة في 26 جوان 405 م، خاصة وأن القرار السابق لم يتم تطبيقه إلا في عاصمة البروقنصلية، مما دفع بالكاثوليك إلى استغلال ذلك وعقد مجمع في 23 أوت 405 م، وتوجيه مراسلة كنسية إلى الإمبراطور تحمل تشكرات المؤتمرين من أجل تكريس الوحدة في قرطاج، وفي نفس الوقت توجيه رسائل إلى الحكام من أجل تنفيذ القرار في كامل المقاطعات، وكان أن استجاب الإمبراطور بأمر في 405/12/8 م لتطبيق القوانين الصادرة ضد الدوناتيين الذين خسروا نتيجة لذلك العديد من كنائسهم وصودرت أموالهم وتعرضوا لعنف مقنن[70].

في وقت كانت المجامع الكنيسة تمارس ضغطا آخر بعد قرار الوحدة من السلطات الرسمية، ففي سنة 406م ولأول مرة طلب الدوناتيون من السلطات الرسمية الاجتماع بالكاثوليك، بعد الاضطهادات التي تعرضوا لها بموجب المراسيم الإمبراطورية، وعقدت عدة مجامع كاثوليكية في قرطاج وفي هيبون خلال السنوات407،408 م، 409م و410م أدانت كلها الحركة الدوناتية والمنشقين، ولم يرض الكاثوليك بتعيّن السيناتور "ماركلنوس" (Marcellenus) لرئاسة المؤتمر[71]، ورفضوا أتباع المطلب الدوناتي الداعي إلى الاجتماع، إلا بعد ما طلبوا الإشراف على ذلك من طرف السلطة السياسية بعد مجمع قرطاج في 14 جوان 410 م، ورحب بذلك الإمبراطور"هونوريوس".

6: مجمع قرطاج 411 م و تجريم الطرف الدوناتي

عُد مجمع قرطاج المنعقد في الفترة 1-8 جوان 411 م، محاكمة حقيقية للحركة الدوناتية بحضور 286 أسقفا كاثوليكيا و279 أسقفا دوناتيا، تمت المحاكمة منذ بداية الانشقاق في 312م، وقضية الخوّنة والمرتدين والاتهامات الموجهة لمؤسسي الحركة الأوائل، وتم الحكم ضد الدوناتيين من طرف المبعوث الإمبراطوري والحكم عليهم بالعودة إلى الكنيسة الكاثوليكية [72].

ويظهر من خلال سيل من المجامع والقرارات المتعلقة بإدانة الدوناتية فالسلطة تحكمت إلى حد كبير في الوضع ونقلت أسلوب الإرهاب إلى الطرف المعادي الذي بدأت قواه تضعف ولكنه لم يستسلم بدليل أنه بعد مجمع 411 م استمرت الدوناتية، وإن كانت خافتة في بلاد المغرب القديم، وزاد مرسوم الوحدة في 412/01/30 م من

متاعب الدوناتيين نظرا للضرائب الكبيرة المفروضة عليهم، وكانت السلطة في كل مرة تصادر ممتلكاتهم وتعرض الأساقفة ورجال الدين إلى النفي خارج أفريقيا واستمرت تلك القوانين تصدر تباعا من قبل الإمبراطور "هونيروس" وخليفته "فالنتيان الثالث" (Valentinien III)، وأظهرت صرامة في التطبيق والمتابعة ومنها قانون 413/03/21 م و17 جوان و30 أوت 414 م و25 أوت و06 نوفمبر 415 م[73]، ذلك أن الدوناتية لا زالت تشكل قوة في المنطقة ولازال الكاثوليك يصورون قوتها ويظهر ذلك في إحدى رسائل" أوغسطين" المؤرخة في سنة 417 م من أن الأساقفة العائدين من الدوناتية كانوا يتعرضون لتعذيب فظيع من طرف الدوناتيين الذين كانوا يفقئون أعينهم ويقطعون ألسنتهم وأرجلهم وأيديهم.[74]

ولذلك كانت السلطة ترسل محافظين للمتابعة كما حدث في سنة 420م حيث أرسل إلى نوميديا المحافظ الإمبراطوري"ديلسيتيوس" (Dulctius) الذي كان وراء إصدار قرارين متعاقبين ضد المنشقين وتم تطبيق القوانين بصرامة ليس ضد "الجناح الدوناتي البريمياني، وحسب، بل وضد الجناح الماكسيمياني أيضا[75]. كما صدرت قوانين أخرى ضد المنشقين في 06 جويلية و 06 أوت 425 م و 30 ماي 428 م[76].

والهدف من تلك القرارات والقوانين هو استئصال هذه الحركة من جذورها حتى لا يبق لها أي أثر لما خلفته من مشاكل للإمبراطورية التي قلت مواردها الزراعية من هذه المنطقة التي تعذها مطمورة تزودها بالغذاء .

خاتمة:

عد القديس اوغسطين واحدا من أهم كتاب اللاهوت في العالم المسيحي و ساهم من خلال تنظيراته و أفكاره و من خلال موقعه الأسقفي لميدينة هيبون وتأثيره على المستوطنين المتنصرين عقب تنصر السلطة من تأليبهم مع السلطة الرومانية ضد السكان الأهالي الذين اختاروا الطرف الدوناتي رغم أنهم لم يكونوا في غالبهم متنصرين و لكن أخذتهم حمية ضد عدو مشترك هو الاحتلال الروماني والمستوطنين الرومان الكاثوليك.. كما أوجد أوغسطين حركة جدل فلسفي و ديني عميق كان له أثره الايجابي في العالم المسيحي في العصر الوسيط.

الإحالات:

[1] BRISSON (Jean Paul), Autonomisme et christianisme dans L'Afrique romaine (de Septéme Sévère à L'invasion vandale),éditions. E. de Boccard, Paris,1958 .p. 292.

[2]-AUGUSTIN (St.) , Lettre, XLIII,3.29.

[3]-Brisson (J.P.),op-cit.,p.p.126-127.

[4] -Yvette DUVAL, Chrétiens d'Afrique à l'Aube de la paix Constantinienne (les premiers échos de la grande persécution ,institut d'études Augustiniennes, Paris, 2000,p,184.

[5]-Monceaux (P.), H.L.A.C.,IV, pp.12-13.

[6] Brisson (J.P.), op-cit.,p.308-309.

[7] BARDY(G.),l'Afrique Chrétienne, libraire Bentlet Gay, Paris,1930.p,22.

[8]-Augustin (St),les Confessions, trad., Andilly (A) ,éd., Gall, Madr, Paris, 1993,II,3.

[9]-Boissier (G.) , l'Afrique romaine , Paris , 1901,p.153.

[10]-Picard (G.) ,la Civilisation de l' Afrique romaine , Plon, Paris, 1959, pp .129-148.

[11] -Gsell (S), Esclaves ruraux dans l'Afrique romaine, Mélanges Gustave Glots, T,1, P.U.F., Paris, 1932, p. 402.

[12]-Augustin (St.), les plus beaux sermons de St. Augustin, trad., Humeau (G.), T.,1, les études Augustiniennes, Paris, 1986,LXI,3.

[13] -Guignebert (Ch.), Tertullien, étude sur ses sentiment aux l'égard de l'empire de la société civil, Paris, 1901, p.329.

[14] AUGUSTIN (Saint), Lettres Saint Augustin, traduites en Français Poujoulat (M.), Libraire liturgique et Catholique, Paris,1858, lettre, XLIII,218

[15] Monceaux (Paul), histoire lettre de l'Afrique chrétienne, depuis les origines jusqu'a l'invasion arabe, T.IV, (LE DONATISME), éditeur Ernest Leroux, Paris 1912, p.p.232-233.

[16] Ibid., p.22.

---

[17]-Lapeyr , l'ancienne église de Carthage, (études et documents) 1[er] série, Beauchesme.G, Paris, 1932., p. 52 .

[18] -Monceaux(P.),H.L.A.C.,IV, p. 30.

[19] "أوروليوس أغسطينوس"(*Aurelies Augustianus*) ولد في 14 /354/10 م بتاغست (*Tagast*) من أسرة متوسطة، الأب "باتريسيوس" (*Patricius*) مجند في الجيش الروماني، ويدين بالوثنيّة ،والأم "مونيكا"(*Monique*) تدين بالمسيحيّة.نشأ أوغسطين وتعلم الابتدائية في بلدته ، ثم انتقل إلى مداوروش للدراسة الثانويّة، وأرسل إلى قرطاج ثاني كبرى المدن بعد روما في الغرب لإتمام دراسته.قضى سنوات صباه في اللهو والميّوعة، ولم يستجب لنصائح والدته ، ثم تنقل إلى روما ، وتأثر بالثقافة الإغريقية والرومانيّة، فدرس شعر "هوميروس"(*Homeres*)، وتأثر بخطابة" شيشرون" (*Cicron*) أعتنق المذهب المانوي قبل أن يعتنق المسيحيّة في الثانيّة والثلاثين من عمره في 24/04/ 387م. شغل منصب عراف في هيبون (*Hippone*) ثم عيّن أسقفا لنفس المدينة خلفا" لفاليريوس"(*Valerus*) حارب بقلمه المبتدعون والهراطقة وأعلن العداء للدوناتيّين .مات في 430/08/28 م قبيل سقوط هيبون في يد الوندال ترك العديد من التآليف من أهمها "مدينة الله" و"الاعترافات ".للمزيد من المعلومات أنظر :- عقون (محمد العربي)،المرجع السابق ، ص.ص.119-134؛

MARROU(Henri) ,op.cit, p.p .11 -17.

[20]Monceaux(P.),H.L.A.C.,IV, p.237.

[21]-Dominique Arnauld, Histoire du Christianisme en Afrique, les sept premiers siècles, éd.,Kantada , Paris, 1996. p.86.

[22]-Augustin (St.), lettre, LXXXIV.2.

[23]-Courtois(Ch), « Saint Augustin et le problème de la survivance du punique », R.AFR. N, 94,1950,pp,267-269.

[24]-Augustin (St.), lettre , CCIX.2.

[25]-Id, Con., Lit., Petil., LXXXIII,184.

[26]-Monceaux(P.) ,H.L.A.C.,IV, pp.113- 114.

[27]-Optat II,17.

[28] محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية... ، ص .299 .

[29]-Augustin(St.), lettre, CLXXXV.

[30] محمد المبكر، المرجع السابق، ص.228.

[31]-Monceaux(P.),« l'église Donatiste avant Saint Augustin »,,,p.42.

[32]-Monceaux(P.),, « l'église Donatiste avant Saint Augustin »,,,p.51.

[33]-Augustin (St.),Cont ., Lit., Petil., II,83,184.

[34]-Monceaux(P.),H.L.A.C.,IV, p.244 .

[35] محمد البشير شنيتي، التغيرات الاقتصادية والاجتماعية ...، ص.298

[36]-Augustin (St.), lettre, CLXXXV.

[37]-GAUDEMENT(Jean),L'église de l'empire romain(IV°V°siècle), F,Boisseau,Toulouse, 1958,p.439 .

[38]-CHARBONNEAU (M.),« L'inscription du Térastyle de potitus a Constantine»R.S.A.C., N° 13, 1869, p.127.

---

[39] جوليان شارل أندري، المرجع السابق، ص.303.

[40]-Monceaux (P.),H.L.A.C.,IV, p.245 .

[41]-Augustin (St.), lettre, LXVI, 357.

[42]-Salama (P.),les voies romaine ,,,p. 95.

[43]-Leschi(L.)« Recherches, Epigraphiques dans le pays dés Nemèmcha » R.AFR.,N°72,1931 p.275.

[44]-Gsell(S.),l'Algérie dans l'antiqutie…p.p.118-119.

[45]-Augustin(St.),la Cite de Dieu, trad. Gabriel Videl, T.I ,libraire ,Bruhet , Alger,1930,IV,34

[46]-Gsell(S.),l'Algérie dans l'antiquité…p.119.

[47]-Brisson (J.P),op-cit .,p.199; Monceaux (P.),H.L.A.C.,IV, p.322 .

[48]-Augustin (St.), lettre , XX III ,77 .

[49]-Monceaux «(P.),l'église Donatiste au temps de (St) Augustin »...,p.25.

[50]-Augustin (St.), cont.,Cresc.,Gram., Donat., texte de M.Petschenig, traduction de G .Finaert, « Bibliothèque Augustinienne », Paris,1965,XLV.49.

[51] -Mesnage (P-J), op-cit., p.p .227-229.

[52]-Brisson (J.P), op-cit., p. 230.

[53]-Monceaux (P.),H.L.A.C.,IV, p.p. 356 - 357 .

[54]-Ibid, p.356.

[55]-Augustin,(St.),lettre ,XLIII,227.

[56] جوليان شارل أندري، المرجع السابق ، ص. 307

[57]-Augustin(St.), lettre , XX IV ,79 .

[58]-Brisson(J.P.), op-cit. ,p.p .224-24-25.

[59]-Toulotte(A.) Géographie de l'Afrique chrétienne (Proconsulaire) imprimerie Notre-Dame des Prés, Paris,1894, p.58.

[60] لما انتصر الجناح البريمياني سنة 397 م قرر العفو عن بعض الأساقفة الماكسميانيين وعادوا إلى الكنيسة الدوناتية، ولكن الجناح الماكسيماني لم ينته تماما، إلا أنه ضعف وبقي محصورا في إقليم البصاسين. للمزيد ينظر، محمد المبكر، المرجع السابق ص ص.235-236.ح.26.

[61]-Augustin (St.),cont.,Cresc.,Gram., donat. ,XLV.49.

[62]Augustin (St.),cont. ,Litt.,Petil. II,LXXXVIII,195.

[63]-Cod.,Theod.,XVI,2,29.D'après,Monceaux ,«l'église Donatiste au temps de Augustin», p. 24

[64]-Monceaux (P.), «l'église Donatiste au temps de(St)Augustin », p.39.

[65]-Augustin (St.), lettre , LII , 274.

[66]-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne, Edition du Seuil , Paris, 1996 . ,p.166.

---

[67]-Monceaux (P.), ,H.L.A.C.,IV, p . 259.

[68] جوليان شارل أندري، المرجع السابق،ص. 308.

[69]-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne,,,p.167.

[70]-Monceaux(P.),«l'église Donatiste au temps de (St.) Augustin », pp.47-48.

[71] -Dict. de Con., pp. 501-510.

[72] جوليان شارل أندري، المرجع السابق، ص .308

[73]-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne,,,p.175.

[74]-Augustin (St.), lettre ,CLXXXV.30.

[75]-Monceaux (P.), «l'église Donatiste au temps de(St)Augustin »…, p.65.

[76]-François DECRET ,le Christianisme en Afrique du Nord ancienne,,,p.175.